شرعة ومنهاج

عبد العزيز بن مرزوق الطريفي

٦

رسالة العالم

لقاءات علمية مرئية (مفرَّغة)

الفهرس

رسالة العالم [1] 1

- مفهوم العالم 2
- منزلة العالم 4
- رسالة العالم 6
- ولاة الأمر والعالم 7
- تسيس العالم بالمناصب 9
- أخطاء العالم 10
- الخلل في رسالة العالم 11
- شمولية رسالة العالم 12

[1]) رابط الحلقة http://www.youtube.com/watch?v=Qoold_dKRPs

مفهوم العالم

العالم الذي ذكره الله تعالى في كتابه وكذلك في سنة نبيه ﷺ هو العالم بما أنزل الله من شرائع وأحكام تلك التي خاطب الله بها العباد للعمل بها ، منها ما يتعلق بأمور الدين ومنها ما يتعلق بأمور الدنيا ، فالعالم هو الذي يحيط بهذه الأحكام فيعرف الخاص منها والعام ويعرف المطلق منها والمقيد والناسخ والمنسوخ وغير ذلك من الأحكام الشرعية المتعلقة بها، كما يعرف تراتيب الشريعة من جهة المهم والأهم والواجب والأوجب والفرض ومراتبه وغير ذلك .

وقد جاء في السنن وغيره وأصله في الصحيح معلق قال النبي ﷺ " العلماء ورثة الأنبياء، إن العلماء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، إنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر " [٢] فالعلماء ورثوا شيء من علم الله به تنضبط أحوال الناس في دينهم ودنياهم ، ولهذا يقول الله تعالى مبيناً منزلة العالم ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران : 18] قرن الله تعالى منزلة العالم بنفسه وبالملائكة لأنهم يقومون بتبليغ الرسالة والشهادة على الناس .

ويكفي في هذا أن الله تعالى قد بيّن أن رفعة العالم تكون بالله لا بالناس ، ومن رفعه الله لا يسقطه أحد وهذا هو العالم الحقيقي ، بينما العالم المزيف هو الذي يرفعه الناس والعامة فيبقى مرفوعًا برفع الناس له ويسقط بعد زوال الرافع ؛ ولهذا يقول الله تعالى ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة : 11]

وهذا ما جاء في الصحيح من حديث عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ قال " إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ ، وَلَكِنَّهُ يَقْبِضُهُ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ ، فَإِذَا ذَهَبَ الْعُلَمَاءُ اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسَ جُهَّالا ، فَسُئِلُوا ، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ ، فَضَلُّوا ، وَأَضَلُّوا " [٣] يعني هم الذين اتخذوهم وصنعوا منهم علماء وصنعوا منهم حُذّاق وأهل معرفة ، فالعالم الذي رفعه الله بعلمه وإرادته هو العالم الحقيقي .

٢) رواه أحمد (196/5) وأبو داود (3641)، والترمذي (2682)، وابن ماجة (223) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه .
٣) رواه البخاري برقم (98) (ج 1 / ص 176) ومسلم برقم (4828) (ج 13 / ص 160) .

وأما العالم الذي يرفعه الناس فإنه يبقى مرفوعًا مادامت الناس ويزول بزوالهم ، ولهذا نجد أئمة الضلال الذين رفعهم العامة أو الحكام الطغاة من الظلمة وغيرهم يزولون ، فبعد زوال الرافع يسقط المرفوع ، أما الذي يرفعه الله تعالى فهو ثابت لا يزول لأن الله تعالى هو من يبقيهم على هذا الأمر .

والأمر الأول الذي يتعلق بالعالم هو العلم ، والعلم له وشائج مترابطة من جهة أصوله وفروعه ، فإن العلم على مراتب فإذا لم يدرك الإنسان أولها فلن يدرك حقيقة أدناها ، فالتوحيد ليس على مرتبة واحدة فهو على درجات فمن عرفه على سبيل الإجمال ولم يعرف مراتبه من جهة الترتيب فيقع لديه خلط ، وكذلك الصلاة فثمة صلاة فرض وثمة نوافل وكذلك نفقة المال منه ما هو على مراتب كالزكاة وما دونها ، وكذلك الأقوال والأفعال التي يفعلها الإنسان فهي على مراتب ، وبمعرفة الحقائق ومراتبها وجمعها يصبح الإنسان عالمًا على وجه الحقيقة .

والأمر الثاني أن العالم على وجه الحقيقة هو العالم الذي يخشى الله ;ولهذا يقول الله تعالى ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ [**المجادلة :11**] .

وقد روى الإمام مالك في الموطأ من حديث معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ قال " **إنما العلم الخشية**".

وجاء في مسند الإمام أحمد عن عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ "لَيْسَ الْعِلْمُ لِلْمَرْءِ بِكَثْرَةِ الرِّوَايَةِ ، وَلَكِنَّ الْعِلْمَ الْخَشْيَةُ "[٤] يعني أن العالم إذا حمل العلم ولم يحمل الخشية فإنه سيتخذ من علمه الذي لديه جسر للوصول إلى شيء من المطامع والأهواء والمشارب لأن خشيته من الخلق أكبر من خشيته لله تعالى .

لذا لابد من توفر وجهين في العلم : العلم بالشريعة وخشية الله تعالى ، وإلا اختل ميزان العالم ووقع الاضطراب وذلك بتحقيق غاياته في ذاته أو تحقيق غايات غيره ممن يخاف ويخشى أكثر من خشية الله تعالى .

٤) الدر المنثور: ج7 /20-21.

منزلة العالم

النصوص في منزلة العالم كثيرة سواء في الكتاب أو السنة ولعل من أجلاها :

1 – علو المنزلة ; قرن الله منزلة العالم بنفسه وبالملائكة كما يتجلى في قوله تعالى ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران :18] .

2 – الرفعة ; خص الله العلماء برفعته كما في قوله تعالى ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة :11] .

3 – ورثة الأنبياء ; جعل الله تعالى الناس على مراتب وجعل أول هذه المراتب بعد الأنبياء هم العلماء الذين حملوا مع العلم العمل ، فهؤلاء هم العلماء الحق الذين أمر الله تعالى باتّباعهم ، وهم هداة الناس ، يوجهون الناس ويميزون الحق من الباطل ، وقد جاء عن النبي ﷺ في المسند أنه قال " الْعُلَمَاءُ فِي الأَرْضِ كَمَثَلِ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ يُهْتَدَى بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، فَإِذَا انْطَمَسَتْ يُوشِكُ أَنْ يَضِلَّ الْهُدَاةَ "[٥] ومعنى ذلك أن النجم ثابت في السماء لا يتحول بخلاف غيره من الكواكب التي تسير ، فإذا حُجب الإنسان عنه لا ينتقل إلى جهة أخرى حتى يراه الناس ، وفي قول النبي ﷺ تشبيه بليغ لأن موضع النجم ثابت فلا يتحول عن موضعه الذي فيه لأنه يعتبر دلالة هداية .

4 – استغفار من في السموات والأرض للعالم ; وذلك لقول النبي ﷺ " وإنَّ العالمَ لَيستغفرُ له مَن في السمواتِ ، ومن في الأرضِ ، والحيتانُ في جوفِ الماءِ "[٦] كما جاء من حديث أبي الدرداء وغيره في المسند والسنن وغيره .

5 – وضع الملائكة أجنحتها للعالم ; وذلك لقول النبي ﷺ " إنَّ الملائكَةَ لتضَعُ أجنِحَتَها لطالبِ العلمِ رضًى بِما يصنع "[٧] وهذا من المنزلة العالية باعتبار ورود الرحمات وإقامة أمر الناس في دينهم ودنياهم .

٥) رواه أحمد (157/3 ، رقم 12621) .
٦) رواه الترمذي ج 4 ص 153 ، صحيح ابن حبان ج 1 ص 289 ، سنن أبي داود ج 2 ص 175 ، سنن ابن ماجة ج 1 ص 81 ، سنن الدارمي ج 1 ص 98
٧) رواه أحمد (4 / 239) (رقم : 240 ، 241) ، والترمذي : الدعوات (5 / 519) (رقم : 3535 ، 3536) ، والنسائي: الطهارة (1 / 105) (رقم : 158)

6- أمان الأمة وأمنها ;وذلك لما جاء " عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِي بُرْدَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ صَلَّيْنَا الْمَغْرِبَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قُلْنَا لَوْ جَلَسْنَا حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَهُ الْعِشَاءَ قَالَ فَجَلَسْنَا فَخَرَجَ عَلَيْنَا فَقَالَ مَا زِلْتُمْ هَاهُنَا قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّيْنَا مَعَكَ الْمَغْرِبَ ثُمَّ قُلْنَا نَجْلِسُ حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَكَ الْعِشَاءَ قَالَ أَحْسَنْتُمْ أَوْ أَصَبْتُمْ قَالَ فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَكَانَ كَثِيرًا مِمَّا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ فَإِذَا ذَهَبَتْ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي مَا يُوعَدُونَ "[٨] والمراد بهذا الأمان هو عدم الاضطراب ، ولهذا قد جاء عن ابن شهاب الزهري "فَنَشْرُ الْعِلْمِ ثَبَاتُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا ، وَفِي ذَهَابِ الْعِلْمِ ذَهَابُ ذَلِكَ كُلِّهِ "[٩] باعتبار أن الله تعالى قد وضع قواعد ضبط الدين والدنيا في هذا الكتاب وفصلها في السنة من جهة العبادات والمعاملات بين الناس.

7- النقصان الحقيقي للأرض هو نقصان العلماء ; وذلك لقوله تعالى ﴿فَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الأنبياء : 44] وفي تفسير هذا النقصان قد روي سفيان عن منصور عن مجاهد بن جبر قال "موت الفقهاء والعلماء"[١٠].

فالمراد بنقصان الأرض كما جاء عن غير واحد من المفسرين هو ذهاب العلماء والفقهاء، فقد روى وكيع عن طلحة بن عمير عن عطاء بن أبي رباح قال في قوله تعالى وقوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد : 41] ذهاب فقهاءها وخيارها[١١].

قال ابن عبد البر: "قول عطاء في تأويل هذه الآية حسن جداً، تلقاه أهل العلم بالقبول"[١٢]

فإن القيمة الحقيقية لأي بلد من البلدان تكون بقيمة علمائها فإذا غيّب العالم وقصرت رسالته أو بُرّز الجهال فليعلم أن ذلك أمارة على نقصان الأرض ولهذا قد جاء عن عبد الله بن مسعود «ما مِنْ عَامٍ إِلَّا والَّذي بعده شَرٌّ مِنْهُ»، ووَضَّحَهُ ابنُ مسعودٍ بقولِهِ «ليس عامٌ إِلَّا الَّذي بعده شَرٌّ مِنْهُ ، لا أقولُ عامٌ أَمْطَرُ مِنْ عامٍ، ولا عامٌ أَخْصَبُ مِنْ عامٍ، ولا أَمِيرٌ خَيْرٌ مِنْ أَمِيرٍ، ولكن ذهابُ خَيَارِكُمْ وعُلَمَائِكُمْ...»[١٣] يعني أن القيمة الحقيقية ليست بغنى الدول وثرواتها ولكن بوجود العلماء الذين يُقدَّمون ويُصدَّرون ويؤخذ بكلامهم .

٨) رواه مسلم (فضائل الصحابة 51/ صـ 1961).
٩) انظر حلية الأولياء وطبقات الأصفياء [3/369].
١٠) انظر (441/16- نووي).
١١) انظر جامع البيان للطبري (408/7).
١٢) انظر جامع بيان العلم وفضله (305/1).
١٣) المدخل إلى السُّنَن الكبرى للبيهقي(146).

رسالة العالم

أنزل الله تعالى الكتاب وأنزل معه الميزان ، ولهذا يقول الله تعالى ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾[الحديد :25] .

والميزان هو العدل في التعاملات من أمور التوحيد والصلاة والزكاة وغيرها ، كذلك التعاملات من جهة العقود والأنكحة والمواريث ، وهذه التعاملات المالية قضى الله تعالى فيها وحسمها ، فالشمولية في العلم أصل من الأصول ولم تقتصر الشريعة على الأحكام الدينية فقط ; ولهذا تعب من ينظر في وضع موازين للقضاء والأحكام وأمور العقوبات ، وغفل عن أن علم أحكام الشريعة هو من جهة الحقيقة علم الأحوال الشخصية وعلم القوانين الوضعية وعلم السياسية والاقتصاد وغيرها .

كثير من الناس ينظرون إلى أحكام الشريعة على أنها أحكام تعبدية محضة ولكنها تتعدى لعبادات وتعاملات وعقود وأنكحة وغيرها ولهذا سماها الله تعالى علمًا وقد ذكر الله في أكثر من سبعمائة موضع مادة العلم واشتقاقها في كتابه الكريم ، كما ورد عن النبي ﷺ جملة من الأحاديث في بيان العلم ومنزلته .

ضبطت الشريعة الأصول وجملة من الفروع فيما يتعلق بأمر دنيا الناس ، كما ضبطت الأقيسة التي يحتاج إليها الإنسان ، فثمة نوازل تنزل بالأمة يحتاج فيها الإنسان إلى القياس .

وقد حذر الله تعالى من الزيادة أو النقصان في جوانب التعبد، وأما ما يتعلق بالماديات فإن الإنسان يلبس ويشرب ويسير ويضرب في الأرض كيفما شاء ولكن الله تعالى قد جعل في ذلك ضوابط كما جاء في حديث النبي ﷺ " كُلْ وَاشْرَبْ، وَالْبَسْ وَتَصَدَّقْ، فِي غَيْرِ سَرَفٍ وَلَا مَخِيلَةٍ "[١٤] .

فضبطت الشريعة كل هذا وجعلت مساحة للناس في أمر دنياهم أن يبتكروا وأن يبدعوا ، وأما جانب الدين وَكِلَهُ الله إليه فليس للمرء أن يزيد فيه أو ينقص ولهذا يقول ﷺ " مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ "[١٥] كما جاء من حديث عائشة رضي الله عنها والمراد بأمرنا هنا هو أمر الدين وليس أمر الناس من مأكل وملبس فالأصل فيه الإباحة والتنوع شريطة ألا يكون فيهما سرف ولا مخيلة .

١٤) رواه أحمد (6695 و 6708)، وعلقه البخاري (10 / 252 / فتح).
١٥) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (رقم: 2697) وَمُسْلِمٌ (رقم: 1718) .

ولاة الأمر والعالم

إذا أطلق ولي الامر في كتاب الله تعالى وكلام رسول الله ﷺ فإنه يتوجه إلى العالم الحاكم ، وفي قول الله تعالى ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ [النساء : 59] فسر غير واحد من المفسرين بأنهم العلماء ، فسره عبد الله بن عباس و مجاهد وعطاء والحسن وغيرهم بأن المراد بأولي الأمر هم العلماء والفقهاء الذين تبصروا بحكم الله تعالى ، وهذا المعنى هو أمر مسلم ولا خلاف فيه عندهم .

فالأصل في الشريعة أن حاكم المسلمين وولي أمرهم أن يكون عالمًا بشرع الله وبالأحكام جملة وتفصيلا ، لأن الشريعة مبنية على أصل واحد وهو أن الله تعالى قد جعل النبي ﷺ ولي أمر المسلمين ثم خلافته من بعده فجاءت على هذا النحو .

وولي الأمر لا يمكن أن يكون ولي تامًا من جهة أحقيته في أمر امتثال أمر الله تعالى إلا باكتمال الجانبين :

الأمر الأول السلطة بالأمر والنهي ، والأمر الثاني أن يكون عالمًا .

ولهذا يقول الله تعالى﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ [النساء :83] وأولي الأمر إذا كانوا لا يستنبطون فكيف يملكون أمور الحل والتحريم والعقوبة !. فلابد أن يكون أولي الأمر عالمًا ليستنبط .

ولهذا ولاية الأمر في الشريعة تتوجه إلى العلماء قبل أن تتوجه إلى غيرهم باعتبار أن الأمر بداهةً لا يمكن للإنسان أن يتولى شيء إلا وهو عالمٌ به .

ولكن ما طرأ على أمة الإسلام بعد زمن الخلافة ثمة شيء من الانفصال أورث جملة من اللوازم التي قد أحدثت خللًا في هرم دولة الإسلام فاختل كثير من جوانبها .

ففي زمن النبي ﷺ كانت الولاية مرتبطة بالعلم ثم الخلفاء الراشدون ، ثم بدأ الأمر شيئًا فشيئًا يختلف وينفصل صاحب السلطة عن صاحب العلم حتى انفصلا كلًا في جهةٍ مختلفة .

وأما في ابتداء الأمر فكان الأمر والنهي يتجسد مع العلم في شخص واحد ، ثم لما انفصلا أصبحت الأمة في ضعف وهوان ، وكذلك لما انعزل العالم عن الأمر والنهي وأصبح السلطان لا يعنيه العلم ضعفت الأمة ، ومنهم

من كان صاحب ورع يلجأ إلى العالم يأخذ منه قبسًا من الأدلة والأحكام وأما من كان غير ذلك فإنه يأخذ مما لديه من رأي وسياسة وربما يخالف الدليل وهو لا يشعر .

واتسع هذا البون حتى أصبح الحاكم ينفرد ولا يرى أن العلم يَعنيه ، وكذلك العالم يرى أن العلم الذي لديه هو علم شريعة مجردة في جوانب العبادة وتوجيه الناس لا يعنيه ، فانفصلا وتبع الانفصال جملة من اللوازم : فأصبح الحاكم يصدر عن غير حكم الله ويخالف في أمره ونهيه ، وأصبح العالم لا يرى أن توجيه الناس في المصالح العامة يَعنيه ، بينما الأصل في ذلك أنهما وجب عليهما الاجتماع في فرد واحد حتى يتوجه الناس ؛ ولهذا النبي ﷺ كان يخاطب أمة الناس وقد جمع فيه الأمر والنهي وكان يخاطب خصومه بدعوتهم للإسلام والإنفاق وغير ذلك .

ولما كان الإنسان عالمًا ويدعو إلى الله وصاحب أمر ونهي فإن الخطاب يتوجه على مراد الله تعالى ، بخلاف إذا كان الحاكم منفصل عن العالم فإنه يصعب عليه أنه في كل مسألة إذا لم يكن لديه العلم قائم في ذاته فيصعب عليه الرجوع إلى العالم في كل كبيرة وصغيرة ليسأله ، فربما يصادف في أمور كثيرة احتياج وملازمة العلم .

ولهذا جاء عن النبي ﷺ " مَا سُئِلَ رَسُولُ اللهِّ صَلَّى اللهُّ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْإِسْلَامِ شَيْئًا إِلَّا أَعْطَاهُ قَالَ فَجَاءَهُ رَجُلٌ فَأَعْطَاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ فَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ أَسْلِمُوا فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءً لَا يَخْشَى الْفَاقَةَ "[١٦] يعنى أن النبي ﷺ أراد تأليف القلوب ، وكذلك الخلفاء من بعده كانوا يتوجهون إلى مخاطبة الأمراء ودعوتهم للإسلام .

فمن الآن في البلدان الإسلامية يدعو الحكام إلى الدخول في دين الله تعالى ؟!.

هذا الأمر شبه معدوم باعتبار أن هذا الأمر يوكل إلى جانب الدعاة فقط ، ولكن لنعلم أن هذا أمر قائم في ذات الحاكم أن يدعو إلى دين الله ، والقصور الذي وُجِد في أمة الإسلام في القرون المتأخرة كان بسبب هذا الانفصال فأصبح السلطان في جهة والعالم في جهة أخرى ، فكان ثمة قصور وانفكاك وضعف في أداء الرسالة .

ولما انفك صاحب السلطة عن صاحب العلم أصبح كل واحد منهما يريد أن يكمل نقصه بشيء من المحاباة ، فهذا يساوم غيره على ما لديه وهذا يساوم غيره على ما لديه ، فأصبح ثمة شيء من التنازلات وتضررت في ذلك الأمة.

وعليه وجب اجتماع الحاكم والعالم لتدبر أمر العامة وإرجاع الأمر لله تعالى فيما أمر وفيما نهى ، والعالم الضعيف هنا هو الذى ينزل على رأى الحاكم والضرر حينئذٍ يكون للأمة .

١٦) رواه مسلم (2312) ، واحمد في "المسند" (14061).

ومن جهة اتخاذ الولايات كان النبي ﷺ يبعث معاذ وأبا موسى لليمن ليعلما أهل اليمن ، وكان عمر بن الخطاب وغيره يبعث معلمين ليعلموا الناس ، فهذا من الأمور المهمة وهي وضع الولايات .

والصحابة رضوان الله عليهم لم يجعلوا لأحد ولاية إلا لعالم ذو خشية لأنه يقضي ويفصل وحتى لا يُقدم حظ نفسه على حظ غيره .

فإذا نظر العالم بمنظاره هو ومصلحته النفسية وهمش الأمة الكبيرة المترامية الأطراف فإنه يختل ميزان الأمة وهذا للأسف الشديد متفاقم في الزمن المتأخر وكذلك في الزمن الحالي .

واتخاذ الولايات من لوازم اكتمال الأمة ، فالأمة بحاجة إلى المؤسسات من قضاء ومحاكم وهيئات وجمعيات رسمية وغيرها ، لكن ينبغي ألا تتخذ هذه الهيئات والمؤسسات والهيئات كغطاء سياسي أو لخدمة شخصية ونحو ذلك ، ولكن ينبغي أن تكون خالصة لوجه الله تعالى وإعلاءً لكلمته .

والمناصب والولايات من الضرورات المتأخرة التي ينبغي أن تؤخذ بقدرها حتى لا تؤثر على رسالة الإسلام ، ففي الأزمنة المتأخرة وجدت مجامع فقهية وهيئات للعلماء وهذا لا يعني أنهم أفضل من غيرهم من جهة الولاية العلمية وإنما المراد بهيئة كبار العلماء ومثلها من الولايات الفقهية التي ظهرت في الأزمنة المتأخرة هو إسقاط التكليف عن الأمة ، ولا يشترط فيها اجتماع جميع العلماء ، كما لا تسقط درجة العالم بخروجه منها أو يعلو شأنه بدخوله فيها ؛ لأن العالم الحق هو ذلك الذي يرفعه الله تعالى فلا يسقطه أحد ; ولهذا ثمة مفهوم خطأ الذي يكون في مؤسسة علمية يجتمع فيها العلماء فإذا كان تحت هذه الولاية فهو من كبار العلماء ثم إذا عزل منها لا يعتبر عالم ! فهذا من الأمور الخاطئة المحدثة لأن ولاية العالم لا يمكن أن يسقطها أحد، كما يقول ابن حزم الأندلسي **" كل ولاية تسقط إلا ولاية العالم "**.

تسيس العالم بالمناصب

المناصب لا شأن لها برسالة العلم وإنما المناصب وسائل لإيصال الحق واسقاط التكليف عن الأمة .

وقد أصبح في زماننا هذا وصف البعض ممن ينسب لجهة معينة أو هيئة بالعلم وتقديمه على غيره بينما يُهمَّش غيره ، وهذا من الأمور القاصرة التي أخلت بالأمة وهو نوع من الابتزاز العلمي والفقهي وكذلك ابتزاز في جانب الفتوى .

ولهذا ينبغي تنزيه النفس عن ذلك خاصةً أن النفوس تتشوف إلى شيء من الوجاهة والمال ، وقد جاء عن النبي ﷺ " مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَى الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ "[١٧] يعنى الذئب إذا أطلق على غنم وهو جائع يفسده وكذلك المناصب إذا فتحت على العالم تفسد رسالته .

وعليه ينبغي أن يكون هناك ثمة أوقاف للعلماء حتى لا تشغلهم المناصب وتؤثر على رسالتهم في إيصال الحق وتجردهم عن الحاكم والمحكوم فربما يُساوَمون على أموال أو يُساوَمون على مناصب ، ومثل هذه الأعطيات تكون بحسب نظرة العالم وموازنته لجانب الإصلاح .

ومن المشاهد للأسف الشديد في جميع الدول العالم الإسلامي بلا استثناء حفظ وظيفة العِالم إن كان موظف وأفتى بما تمليه عليه الدولة وضياع وظيفته إذا خالف ما تريد ، فينبغي أن تحفظ رسالة العالم وأن تصان عن مثل هذه الأمور .

والأقوال الشاذة يتصدى لها العلماء منذ قرون وكذلك وجدت في الزمن الماضي ويُرد عليها ، وهذا الزمن هو زمن الانفتاح ، فيجد الإنسان الفتوى من المشرق تصل إلى المغرب ويتبناها الناس ولكن تُرد في ذلك على الدليل .

وقد تُتخذ كثير من الولايات التى تخدم جانب الفتاوي والقضاء دعمًا للأقوال الشاذة والتحجير على غيرها من الأقوال الصحيحة ، وهذا نوع من التَّسيِس (من السياسة) ومثله ما يتعلق بالأمور الاقتصادية والعقود والمعاملات وغير ذلك .

أخطاء العالم

الرسالة الأولى في أخطاء العالم تتوجه إلى الناس :

العالم ليس كغيره من الناس فإذا ساوى الناس بين العالم والشخص العادي فأصبح لا حرمة له يُخاض فيه فإنه يتعدى الأثر من ذاته إلى رسالته وأثره في الأمة ، فإنما عظم جانب العالم لعظم الرسالة التي بين جنبيه .

والأثر في جانب الغيبة يختلف من شخص لشخص فغيبة الوالد تختلف عن غيبة الأخ ، وغيبة الجار تختلف عن غيبة البعيد ، وغيبة العالم تختلف عن غيبة غيره لأثرها المتعدي ، فمقولة (لحوم العلماء مسمومة) ليس المراد عدم

[١٧]) رواه الترمذي(2376) والدارمي (2730) والطبراني في الكبير (15538) .

الخوض في العلماء وغيرهم مباح الخوض فيهم كما قال ابن عساكر وإنما لما حمله العالم من رسالة لإعلاء الحق وإصلاح الأمة.

والعالم ليس له قدسية وإنما له مكانة ومنزلة ورفعة وضعها الله تعالى لهم فهو الرافع سبحانه ؛ ولهذا يقول الله تعالى ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة :11].

فينبغي أن يحفظ العالم بالقدر الذي وضعه الله تعالى له ، وبحسب علمه الذي تمكن منه ، وليس المراد به العصمة أو أن أمره أمر إلهي وليس المراد أن له قداسة ولحومه مسمومة ولحوم غيره غير مسمومة بل يُحاسب وزلته أعظم من زلة غيره باعتبار أنه صاحب ولاية وينبغي أن يكون من أهل الانضباط .

والرسالة الثانية في أخطاء العالم تتوجه إلى العالم ذاته :

ينبغي أن يكون العالم متواضع للناس مشفق عليهم رحومًا لطيفًا بهم ، وألا يكون متكبر ، بل ينبغي أن يكون متواضع مخالطًا للناس ، يكون في حاله وفي قوله وفعله وفي ذهابه ومجيئه متواضع مع الناس يتساوى معهم ولا يتكبر عليهم ، يسلم على الصغير والكبير يخدم الناس ويخدم ذاته كحال بقية الناس .

النبي ﷺ كان وهو سيد ولد آدم وسيد الأولين والآخرين متواضع مع الناس من جهة البساطة واللين وإعانة صاحب الحاجة ، وخدمته لنفسه ، حتى في بيته كما جاء في حديث عائشة عليها رضوان الله أنه ﷺ " كَانَ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ "[١٨] فيكون في خدمة أهله وربما يغسل نعله وثوبه ويقوم بحاجة الناس ، إماطة الأذى عن الطريق ، إعانة المحتاج ، يقوم بمؤونة نفسه من غير تكلفٍ وتصنعٍ في هذا الجانب .

الخلل في رسالة العالم

رسالة العالم رسالة دينية ودنيوية ولهذا يقول الله تعالى ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد : 25] .

أنزل الله تعالى الكتاب وأنزل الميزان ليقوم الناس بالعدل ليحفظ الدين والدنيا لا أن يقوم بالتعبد ثم يدع المظالم دون انتصار للمظلوم فهذا نوع من الضعف في جانب الرسالة .

---

١٨) رواه البخاري (6039).

ولهذا جاء عن أنس بن مالك كما عند البخاري قال " كَانَتْ الْأَمَةُ مِنْ إِمَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ لَتَأْخُذُ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَنْطَلِقُ بِهِ حَيْثُ شَاءَتْ "[١٩] .

والضعف الموجود في جوانب رسالة العلماء أنهم يعملون على الحفاظ على الجانب التعبدي وترك الجوانب الآخرى كالظلم في جانب الأموال والسجون والمعتقلات وغيرها .

والنبي ﷺ لما جاءته بريرة وهي أَمَة كما جاء عن عائشة قَالَتْ " أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِيَ بَرِيرَةَ ، فَأُعْتِقَهَا فَاشْتَرَطَ عَلَيَّ مَوَالِيهَا أَنْ أَعْتِقَهَا وَيَكُونُ الْوَلاءُ لَهُمْ ، فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ : اشْتَرِيهَا وَأَعْتِقِيهَا ، فَإِنَّمَا الْوَلاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ ثُمَّ خَطَبَ النَّاسَ ، فَقَالَ : " مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللَّهِ ؟ فَمَنْ شَرَطَ شَرْطًا لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَلَيْسَ لَهُ ، وَإِنْ شَرَطَ مِائَةَ مَرَّةٍ ، إِنَّمَا الْوَلاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ "[٢٠] .

فانتصر النبي لجارية على المنبر ، بل إنه ﷺ كانت تذهب به الأمة حيث شاءت ، تذهب به إلى أين ؟ ولماذا ؟ تذهب به إلى سيدها ،إلى الأسواق ، إلى رجل تعرض لها بطريقها ونحو ذلك ، فرسالة النبي الانتصار للمظلوم والانتصار لصاحب الحاجات ، هذا الأمر الذي ضعف عند كثيرٍ من العلماء فاهتموا بجانب معين كالعبادة ورأوا أن غيره لا يعنيهم .

ولما استأثر الحاكم بالسلطة والأمر، رأى أن يُعزل العالِم عن جوانب إصلاح السياسة والمال ، وقصر إصلاح العلماء على جوانب التعبد ، فالخلل جاء في رسالة العالِم باهتمامهم بالجانب الديني على حساب الجانب الدنيوي ، وإذا تعدى العالِم لنصرة المظلوم فإنه يوصف بالحركية والحزبية وهذا لا شك نوع من الترهيب حتى يعطل العالِم الجانب الأكبر في رسالته التي وجهها الله تعالى إليه وهي أن يقوم الناس بالقسط .

شمولية رسالة العالم

المصطلحات والتقسيمات المستحدثة هي التي قلصت وحجمت وحيدت دور العالِم في إصلاح الأمة فجعلت إصلاحه في جانب الدين والعبادة مُجردا، كما حصرت إصلاحه في نطاق ولايته فلا يتوجه بها لمشارق الأرض ومغاربها .

١٩) رواه البخاري : كتاب الأدب ، باب الكبر (5724).
٢٠) رواه البخاري: باب استعانة المكاتب وسؤاله الناس وأبواب أخرى رقم (2424)، 904/2 ، ورواه مسلم: باب إِنَّمَا الْوَلاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ رقم (3850)، 213/4 .

ولاشك أن هذا من القصور في رسالة العالم ، فرسالة العالم عامة وليست إقليمية ، فليس معنى وجوده تحت ولاية أنه لا يتوجه بالإصلاح إلى مشارق الأرض ومغاربها ، بل إن رسالته عامة وعليه أن يتوجه لنصرة المظلوم في شتى أقطار الأرض وبقاعها .

ولابد أن يتولى العالم أمور الناس من جهة الأموال وحقوقهم وإنصافهم في مظالمهم من سلب الأموال ، حقوقهم من جهة الفقر والزكاة والنفقة من بيت مال المسلمين ومن جهة توجيه الحكام لأوامر الله تعالى ونواهيه ، وجوب الزكاة على العاطلين ووجوب النفقة على العاطلين ، تقسيم العطيات والهبات وعدم تقديم طبقة من الأمة على طبقة أخرى وغير ذلك ، فكل هذه من الأمور المهمة التي يجب على العالم أن يرعاها ويؤدي رسالة الله فيها كما أمره الله تعالى .

وإمامة العالم وإمامة الدين والدنيا لا تكون بالوراثة ولهذا يقول الله تعالى ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة : 124] يعني أنه لابد أن يكون في ذرية الإنسان مهما بلغ صلاحًا شيء من الظلم والفساد وهذا في ذرية نبي ، فإنه يكون في ذرية غيره من باب أولى .

والعلم لا يورث ولا ينتقل للأبناء باعتبار أن آبائهم وأجدادهم من العلماء ، بل إن العلم يقوم في ذات الإنسان ، وكذلك ما يتعلق بإمامة الدنيا وهذا أمرٌ قد فصله الله في كتابه العظيم ، وفصله النبي ﷺ ويقع الخلل في الأمة في هذا الجانب .

ثمة جانب يتعلق بالعالم والحاكم وصلته والتواصل بينهما ، فإن الأمة بحاجة إلى استصلاح بعضها مع بعض ، العالم بحاجة إلى شيء من التوجيه والإرشاد والدور الذي أناطه الله به من جهة التوجيه .

وكذلك الحاكم يحتاج إلى التوجيه بمعرفة ما أمر الله تعالى به فإذا انفرد بذلك وكان له شيء من البطانة التي تحيد عن مراد الله تخبط يمنة ويسره بما يظن أنه صلاح فتضطرب الأمة .

فينبغي للعالم التيقظ في الفتوى في أمر العامة وكذلك في أمر السلطان حتى لا تستغل فتواه في إيصالها إلى غير ما يريد أن تصل إليه ، وقد كان الإمام أحمد بن حنبل يُستفتى من الخليفة فيمتنع ولما سئل يعلل بأنه يخشى أن يراد بها غير ما سُئل عنه .

فينبغي للعالم التيقظ من جهة الفتوى ، بأن يعرف مواضع الدليل التي يستنبط منها ومواضع التعليل التي يقيس عليها وكذلك مواضع التنزيل ، وكذلك سبر حال الحاكم من جهة امتثاله للدليل .

بمعنى أنه هل هذا الحاكم ممن يعظم العلماء ويأخذ بأقوال العلماء في كل موضع فيطلق فتواه بناء على ذلك !.

واما إطلاق الفتوى من غير تيقظ لا شك أن هذا قصور في السياسة وضعف في النظر ; ولهذا قال ابن مفلح رحمه الله: "لَا تَجِبُ طَاعَةُ الْوَالِدَيْنِ بِطَلَاقِ امْرَأَتِهِ فَإِنْ أَمَرَهُ أَبُوهُ بِطَلَاقِ امْرَأَتِهِ لَمْ يَجِبْ، ذَكَرَهُ أَكْثَرُ الْأَصْحَابِ قَالَ سِنْدِيٌّ سَأَلَ رَجُلٌ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ فَقَالَ إنَّ أَبِي يَأْمُرُنِي أَنْ أُطَلِّقَ امْرَأَتِي قَالَ : لَا تُطَلِّقْهَا قَالَ : أَلَيْسَ عُمَرُ أَمَرَ ابْنَهُ عَبْدَ اللهِ أَنْ يُطَلِّقَ امْرَأَتَهُ قَالَ حَتَّى يَكُونَ أَبُوك مِثْلَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ "[٢١] .

ونحن نعاني في الزمن المتأخر وهذا في قرون ماضية ، وليس في زمن دون زمن ، نجد أن الولايات بدأت تتفلت شيئًا فشيء حتى وصلت إلى ما هو عليه ، مما يستوجب على العلماء ألا يفصلوا الفتوى عن التطبيق فيقع فيها الخلل .

والفتوى أمانة للعالم من جهة الدليل و من جهة التنزيل ; ينبغي أن يتقي الله فيها حق تقاته ، وينبغي أن يعلم أن نقص الحاكم بجهله أو ببطانة سوء تستحوذ عليه فإنه واجب عليه المناصحة والمداومة سرًا وعلانية حتى تصل السفينة إلى ما يريده الله تعالى لا إلى ما تريده النفوس الطامعة التي تنظر إلى مواضع قدميها والله تعالى يريد بها الهداية ولا يريد بها الغواية .

٢١) انظر الآداب الشرعية لابن مفلح ، ج1، ص488.